اللغة والهوية الثقافية ..النموذج الياباني

د.شهاب فارس

بعد أن أصبح العالم قرية كونية صغيرة بفضل الثورة المذهلة في عالم الاتصالات، أصبح الحفاظ على الهوية والخصوصية الثقافية لكل بلد أمراً مهماً لايجب النظر إليه على أنه قضية بسيطة أو ثانوية، بالطبع التواصل بين الشعوب شيء مطلوب ومهم ولاغنى عنه، ولكن يجب توخي الحذر من مخاطر العولمة الثقافية على حساب خصوصية الثقافة الذاتية.

وهنا يكون للغة الدور الأهم في تحقيق هذه الهوية والخصوصية الثقافية، فاللغة وعاء للثقافة والفكر والمعرفة، ووسيلة للنهضة والتنمية البشرية، ووسيلة للتواصل مع تراث الأمة، وكذلك التواصل مع الآخر، ليس فقط بين أفراد المجتمع ومؤسساته المختلفة، بل والتواصل مع الثقافات الأخرى .ولكن إهمال اللغة القومية الأم، والاهتمام فقط باللغة الأجنبية وتعلمها بل والتعلم بها، يؤدي إلى تبعية ثقافية تتسبب في تدمير روح الأمة .وقد شهد التاريخ بذلك حيث حاول المستعمر دائماً إحلال لغته محل اللغة القومية للبلدان التي استعمرها، إيماناً منه بأن ذلك يجعل هذه الشعوب تفقد ثقافتها،

وتكتسب ثقافة المستعمر وعلومه فقط، إذ ينحصر اهتمام هذه الشعوب فيما يصوره المستعمر من علوم ومعرفة وبلا شك أن هذا يسهل من مهمة المستعمر في هدم وتدمير روح الأمة وتراثها، وجعل هذه الأمة أميل إلى تقبل وجهة نظر المستعمر، ومن ثم السيطرة على هذه الشعوب، فسلب الشعب للغته، أو بمعنى آخر، انتشار لغة المستعمر أو الغالب في بلاد المغلوب وحلولها محل لغته، يعتبر بداية انهيار لروح الأمة وتراثها، وفقدانها لثقافتها، وزوال لهويتها كما هو معروف كمبدأ في علم الاجتماع الذي أرساه ابن خلدون في مقدمته بقوله : " إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونِحلته وسائر أحواله إن الأمّة إذا غُلِبت وصارت في ملك غيرها، أسرع إليها الفناء " .بالطبع هذا لا يمثل دعوة لعدم تعلم اللغات الأجنبية، بل على العكس، لابد من الإقبال على تعلم أكثر من لغة من اللغات الأجنبية للانفتاح على ثقافات العالم المختلفة، وتعزيز التواصل الحضاري مع دول وشعوب العالم، وتسهيل التنمية الاقتصادية والعلمية والثقافية .

ولنا في ذلك تجارب أخرى يجب أن نستفيد منها، ومن هذه التجارب الحية والناجحة، تجربة اليابان، أول دولة غير أوروبية استطاعت أن تحقق نهضتها، وفي نفس الوقت الاحتفاظ بهويتها الثقافية، حيث تم احتلالها من الولايات المتحدة الأمريكية في خضم غيوم وأمطار وسواد القنبلة الذرية الحارقة التي أتت على كل شيء فيها، فرضخت لكثير من الشروط المجحفة مثل تجريدها من السلاح، وحلّ الجيش والإبقاء فقط على قوات دفاع ذاتية، والتخلي

عن فكرة تقديس الإمبراطور، ونزع سلطاته والإبقاء عليه كرمز فقط، حيث كان اليابانيون ينظرون إلى إمبراطورهم نظرة تقديس، ويدينون له كل الولاء والطاعة العمياء .كما خضعت اليابان لمجموعة اصلاحات في النظم السياسية والتعليمية على رأسها تبني دستور جديد، ونظام تعليمي لا مركزي حسب المفاهيم الأمريكية بعيداً عن النزعة العسكرية .قبلت اليابان هذه الشروط والإصلاحات ولكنها لم تتخل عن لغتها القومية رغم نظامها الكتابي المعقد، فبقيت لغتها القومية وسيلة لنظام تعليمها وعملية تحديثها ونهضتها العلمية والصناعية، حيث جعلتها لغتها الفصيحة في التعليم بمختلف مراحله وتخصصاته، وكذلك لغة الإعلام وعلى رأسه قناتها التلفزيونية الحكومية المعروفة باسم NHK التي كان لها دور كبير في انتشار اللغة اليابانية الفصيحة وترسيخها بين اليابانيين على اختلاف لهجاتهم .

وإذا علمنا مدى كثرة وتعقيد حروف الكتابة في اللغة اليابانية، ربما استشعرنا مدى صعوبة المهمة التي تغلبت عليها اليابان ببراعة، ومدى إصرار وإرادة اليابانيين في التصدي للحفاظ على هويتهم وخصوصيتهم الثقافية، وفي نفس الوقت، أدركنا عدم صعوبة المهمة التي يجب أن ننوط بها في وطننا العربي في محو الأمية العربية، واستخدام اللغة العربية لغة لاكتساب المعرفة والعلوم المختلفة، ومن ثم تأكيد الهوية الثقافية العربية .فبالرغم من النظام الكتابي المعقد للغة اليابانية - الذي يتألف من ثلاثة أنواع من الحروف مستخدمة في آن واحد، أصعبهم وأعقدهم بلاشك المقاطع التصويرية أو التعبيرية التي نراها مكتوبة على صناديق الأجهزة الكهربائية وغيرها والتي تعد بالآلاف وتشبه اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة، نجد اليابان، تفخر بأن نسبة الأمية فيها صفر في المائة، هذا فضلاً عن أن اليابان الأولى في العالم من حيث تحقيقها للنسب المرتفعة في عدد الملتحقين بالتعليم النظامي حيث تصل نسبة الالتحاق بالتسع سنوات الأولى الإلزامية 100% ونسبة الملتحقين بالمدارس الثانوية بعد الانتهاء من المدارس المتوسطة الإلزامية 94.4 %" تزيد النسبة إلى 97.5% إذا أُضيفت نسبة طلاب الثانوية الدارسين بالتعليم بالمراسلة " ، وبلغت نسبة المتقدمين للدراسة بالجامعة بعد الثانوية 50.7 %" تزيد النسبة إلى 75.9% إذا أُضيفت نسبة الطلاب الذين يدرسون في الجامعات المفتوحة أو بالتعليم بالمراسلة والمدارس التخصصية " ، وذلك حسب إحصائية وزارة التربية والعلوم والثقافة اليابانية لعام 2004م .

وهذا بالطبع له دلالات كثيرة من بينها أنها تعكس مدى اعتزاز اليابانيين بلغتهم التي هي وعاء ثقافتهم ورمز هويتهم وثقافتهم، حيث يتمسكون بخصوصيتها من منطلقات ثقافية واجتماعية، ومن ثم يجدُّون ويجتهدون لتعلمها والتمكن منها، وهذا ما أجهض محاولات طمس هذه اللغة، حيث كانت هناك محاولات لإلغاء مقاطع الكتابة اليابانية وتبني الأبجدية اللاتينية بدلاً منها في الكتابة، وذلك بعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية " 1939 - 1945م " واحتلال الولايات المتحدة الأمريكية لها في الفترة من - 1945 1952م حيث حاول الأمريكيون إلغاء مقاطع الكتابة اليابانية واستبدالها بالحروف اللاتينية على غرار ماحدث في تركيا مثلاً، وبالفعل أوفدت وزارة التعليم الأمريكية لجنة لتقصي مستوى التعليم والأمية في اليابان، وقامت هذه اللجنة بإجراء اختبارات في اللغة اليابانية للشعب الياباني على مستوى اليابان كلها في وقت واحد ولكل الأعمار للصغير والشاب والكهل، وللرجال والإناث، ظنا منهم أن نتيجة الاختبارات ستكون سيئة وتثبت ارتفاع مستوى الأمية باليابان، ومن ثم يمكنها استبدال مقاطع الكتابة اليابانية بأنواعها الثلاثة بالأبجدية اللاتينية، ولكن كانت النتيجة مدهشة ومفاجئة للأمريكيين، حيث وجدوا أنه حتى المرأة العجوز تستطيع أن تكتب بهذه المقاطع الكتابية المعقدة، وأن نسبة الأمية قاربت الصفر ! وبالتالي تراجع الاحتلال الأمريكي عن رأيه بهذا الشأن، وبقيت اللغة اليابانية كما هي تنفرد بهذا النظام الكتابي لها إلى الآن .وهذا دلالة على أن المشكلة ليس في صعوبة اللغة بقدر الاعتزاز بهذه اللغة والتمسك بها والإقبال على تعلمها، والتمكن منها، وليس البعد عنها بدعوى أنها لغة صعبة أو لغة لا تساير العصر وعلومه .

فليكن لنا قدوة في اعتزاز اليابانيين بلغتهم وهويتهم وانتمائهم .ولنصن لغتنا العربية مما يتهددها من تدهور وتجاهل ومكائد وتهاون، فاللغة العربية هي هويتنا وشخصيتنا القومية، لغة تراثنا وعروبتنا وديننا الحنيف بخاصة، إن الله سبحانه وتعالى وعدنا بحفظ القرآن إذ يقول في كتابه العزيز في سورة الحِجر : " إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون " .ولكن يجب ألا ننسى أن الله سبحانه وتعالى علمنا أن نأخذ بالأسباب ونبدأ حتى ولو بخطوة في تحقيق ما نريد، والخطوات كثيرة من أهمها عدم التهاون تجاه اتخاذ بعض الصحف ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة اللهجات العامية لغة لها، والتفكير في آليات للارتقاء والنهوض بمستوى اللغة العربية في كل من مجالي التعليم والإعلام بشكل خاص، فعلينا أن نتحمل مسئوليتنا في حفظ لغة القرآن، وإعادة مكانتها إليها لنكون جديرين بما وعده الله سبحانه وتعالى لنا .

كلية اللغات والترجمة جامعة الملك سعود ـ الرياض

جريدة البلاد السعودية الأربعاء، 19 آذار، 2008 الموافق 1429/3/11هـ